الباب الرابع
التزام التزكية
السلوك.. الأخلاق.. الآداب

التزام التزكية من الدين؛ فإن الدين جاء بها، وأمر بها.

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في "تفسيره":

"يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾: أي طَهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه". اهـ.

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في "تفسيره":

"يقول تعالى ذكره: قد نجح وأدرك طلبته؛ من تطهر من الكفر، ومعاصي الله، وعمل بما أمره الله به، فأدى فرائضه". اهـ.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره":

وقوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾: أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: "**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يُمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**". أخرجاه من رواية أبي هريرة...

وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾: أي فأرشدها إلى فجورها، أي بين

ذلك لها، وهداها إلى ما قدَّر لها. قال ابن عباس: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾: بين لها الخير والشر.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾: يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكَّى نفسه، أي بطاعة الله، كما قال قتادة: وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وكقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) ﴾.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾: أي دسسها أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله عز وجل. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسَّى الله نفسَه كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس". اهـ.

وقال الإمام البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ في "تفسيره":

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾: أنماها بالعلم والعمل". اهـ.

وقال العلامة الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في "تفسيره":

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾: أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى، بكل مطلوب وظفر بكل محبوب". اهـ.

وإذا كان هذا كذلك، فإن تزكية النفس يكون :في السلوك، والأخلاق، والآداب، ولهذه الثلاثة أعمال متنوعة، نذكر منها ما يلتزمه المسلم والمسلمة، في يومه وليلته:

[١] طلب العلم الشرعي:

وليس المقصود به العلم الذي لا يجب إلا على الْعَالِمِ؛ فإن العلم علمان:

علم عيني.. وعلم كفائي:

أما العلم العيني: فهو العلم الذي يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمه.

وهو ما تقوم به اعتقاداته، وعباداته، ومعاملاته، على الوجه المشروع.

وهذا ما ترجمه الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في "جامعه الصحيح" في "كتاب العلم" "باب العلم قبل القول والعمل".

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله تعالى ـ في "فتح الباري":

"قولـــه: (باب العلم قبل القول والعمل) :

قال ابن المنير: أراد به: أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مُصَحِّحٌ للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف على ذلك؛ حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: "إن العلم لا ينفع إلا بالعمل" تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه". اهـ.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في "المجموع شرح المهذب":

"فرض العين: وهو تعلم المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به، ككيفية الوضوء، والصلاة، ونحوهما، وعليه حمل جماعات الحديث المروي في مسند أبي يعلى الموصلي، عن أنس عن النَّبي ﷺ: **(طلب العلم فريضة على كل مسلم)**". اهـ.

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في "أعلام الموقعين":

"الواجب على كل عبد: أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته". اهـ.

وقد حث النَّبي ﷺ على طلب العلم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **"مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي**

عَوْنَ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ؛ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ" (١).

ينبغي لكل مسلم ومسلمة: أن يكون له نصيبًا من العلم.

قال الإمام الماوردي ـ رحمه الله تعالى ـ في "أدب الدنيا والدين":

"وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها: علم الدين؛ لأن الناس بمعرفته يَرْشُدُون، وبجهله يَضِلُّون؛ إذ لا يصح أداء عبادة جَهِلَ فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط إجزائها؛ ولذلك قال ﷺ: "**فضل العلم خير من فضل العبادة**" (٢).

وإنما كان كذلك لأن العلم يبعث على فعل العبادة، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها، قد لا تكون عبادة؛ فلزم علم الدين كُلَّ مُكَلَّف؛ ولذلك قال النَّبي ﷺ: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**" (٣).

وفيه ـ أي هذا الحديث ـ تأويلان: أحدهما: علم ما لا يسع جهله من العبادات. والثاني: جملة العلم، إذا لم يَقُم بطلبه مَنْ فيه كفاية، وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الأعيان، وفرض جميعه على الكفاية، كان أولى مما لم يجب فرضه على الأعيان، ولا على الكفاية. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (١٢٢) ﴾ [التوبة: ١٢٢]". اهـ.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط» والحاكم في «المستدرك» كلٌ بسنده، عن حذيفة عن النَّبي ﷺ قال: «**فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**» وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

(٣) حديث صحيح: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

[٢] التقـــوى :

ومما يُلتزم أيضًا في اليوم والليلة،ولا ينبغي أن ينفك عنه المسلم والمسلمة: التقوى.

فإن التقوى جماع كل خير، وقد أمر الله تعالى بها في غير ما آية.

قال تعالـى: ﴿ واتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أنَّ اللَّه مع الْمُتَّقِين ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال تعالـى: ﴿ واتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أنَّ اللَّه شديدُ الْعقاب ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال تعالى: ﴿ واتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أنَّكُمْ إليْه تُحْشَرُون ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال تعالى: ﴿ واتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أنَّكُم مُّلاقُوهُ وبشِّر الْمُؤْمنين ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال تعالى: ﴿ واتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أنَّ اللَّه بكُل شيْءٍ عليمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى: ﴿ واتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أنَّ اللَّه بما تعْملُون بصيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال تعالى: ﴿ واتَّقُوا يوْمًا تُرْجعُون فيه إلى اللَّه ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نفْسٍ مَّا كسبتْ وهُمْ لا يُظْلمُون (٢٨١) ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وأمر بها النبي ﷺ وحث عليها:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّه ﷺ: **"اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"** (١).

قال العلامة المناوي ـ رحمه الله تعالى ـ في "فيض القدير":

"**اتَّقِ اللَّه**" بامتثال أمره، وتجنب نهيه.

"**حَيْثُمَا كُنْتَ**": أي وحدك، أو في جَمْع، فإن كانوا أهل بغي أو فجور: فعليك بخويصة نفسك. أو المراد: في أي زمان ومكان كنت فيه، رآك الناس أم لا؛ فإن الله مُطَّلع عليك، ﴿ واتَّقُوا اللَّه الَّذي تساءلُون به والأرْحام إنَّ اللَّه كان عليْكُمْ رقيبًا ﴾

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد، والترمذي، وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

والخطاب لكل من يتوجه إليه الأمر، فيعم كل مأمور، وأفراد الضمير باعتبار كل فرد. وهذا من جوامع الكلم؛ فإن التقوى، وإن قل لفظها: كلمة جامعة، فحقه تقدست أسماءه: أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر بقدر الإمكان، ومن ثم شملت خير الدارين؛ إذ هي: تجنب كل منهي عنه، وفعل كل مأمور به، فمن فعل ذلك: فهو من المتقين، الذين أثنى عليهم في كتابه المبين". اهـ.

فالتقوى إذًا: التزام يومي، بل هي ملازمة للعبد حتى الممات.

[٣] التوبة:

فإن التوبة وظيفة العمر.. فإنه ما من مسلم أو مسلمة، إلا هو مقصر في أداء أمر، أو اجتناب نهي؛ فَشُرعت التوبة.

قال ابن قدامة المقدسي ـ رحمه الله تعالى ـ في "مختصر منهاج القاصدين":

"وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[النور: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** ﴾[التحريم: ٨].

وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[البقرة: ٢٢٢].

وقال النَّبي ﷺ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**". مسلم.

وفي "الصحيحين" من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ؛ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا**

بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته". والأحاديث في هذا كثيرة.

والإجماع منعقد على وجوب التوبة؛ لأن الذنوب مُهلكات، مُبعدات عن الله تعالى؛ فيجب الهرب منها على الفور، والتوبة واجبة على الدوام؛ فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو خلا عن معصية بالجوارح، لم يخلُ عن الهَمِّ بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخلُ عن وسواس الشيطان، بإيراد الخواطر المتفرقة المُذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه، لم يخلُ عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى، وصفاته، وأفعاله.

وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلابد منه، ولهذا قال النَّبي ﷺ: "**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**". مسلم.

ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح: ٢].

فأما غيره فكيف يكون حاله؟.

ومتى اجتمعت شروط التوبة: كانت صحيحة مقبولة؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفي الحديث: أن رسول ﷺ قال: "**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**" (١).

والأحاديث في ذلك كثيرة". اهـ.

[٤] محاسبة النفس:

قال الإمام الماوردي ـ رحمه الله تعالى ـ في "أدب الدنيا والدين":

"ثم عليه أن يتصفح في ليله، ما صدر من أفعال نهاره؛ فإن الليل أخطر للخاطر،

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، وانظر «صحيح الجامع الصغير».

وأجمع للفكر، فإن كان محمودًا: أمضاه، وأتبعه بما شاكله وضاهاه. وإن كان مذمومًا: استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل؛ فإنه إذا فعل ذلك وجد أعماله لا تنفك عن أربعة أحوال:

- إما أن يكون قد أصاب الغرض المقصود بها.
- أو يكون قد أخطأ فيها، فوضعها في غير موضعها.
- أو يكون قَصَّرَ فيها؛ فنقصت عن حدوده.
- أو يكون قد زاد فيها؛ حتى تجاوزت محدودها.

وهذا التصفح إنما هو استظهار، بعد تقديم الْفِكَر قبل الفعل؛ ليعلم به مواقع الإصابة، وينتهز به استدراك الخطأ، وقد قيل: من كثر اعتباره؛ قَلَّ عِثَاره". اهـ.

قال ابن قدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ في "مختصر منهاج القاصدين":

"قال الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)** ﴾ .

[آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)** ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

وقال تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)** ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨].

فاقتضت هذه الآيات، وما أشبهها: خطر الحساب في الآخرة.

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم،

وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه في الدنيا: خف في القيامة حسابه، وحَسُنَ منقلبه، ومن أهمل المحاسبة: دامت حسراته...

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾[الحشر: ١٨].

وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مُضي العمل؛ ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا.

وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه.

وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه؛ فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات؛ حيل بيني وبينك.

ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم.

إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء، في آخر كل سنة، أو شهر، أو يوم.

ومعنى المحاسبة: أن ينظر في رأس المال وفي الربح، وفي الخسران؛ لتتبين له الزيادة من النقصان.

فرأس المال في دينه: الفرائض.. وربحه: النوافل والفضائل..وخسرانه: المعاصي.

وليحاسبها أولاً على الفرائض.. وإن ارتكب معصية: اشتغل بعقابها ومعاقبتها؛ ليستوفي منها ما فرط... (١) فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة". اهـ.

[٥] عمـــارة الوقـــت :

فإن الوقت من أهم ما يملك العبد، وهو من النعم الجليلة للعباد.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**" (٢).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في "فتح الباري":

"**قال ابن بطال: معنى الحديث**: أن المرء لا يكون فارغًا، حتى يكون مكفيًّا، صحيح البدن، فمن حصل له ذلك: فليحرص على أن لا يغبن، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شُكْرِه: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون. وأشار بقوله: "**كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ**:" : إلى أن الذي يوفق لذلك قليل.

وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا؛ لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا، فغلب عليه الكسل عن الطاعة؛ فهو المغبون، وتمام ذلك: أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله: فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله: فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل:

يسر الفتى طول السلامة والبقا ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويحمل

---

(١) إن الأولى في محاسبة العبد نفسه على المعاصي: أن يتوب ويكثر من الاستغفار والندم، وأن يرد لكل ذي حق حقه، لا أن يعاقبها فحسب.

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري.

وقال الطيبي: ضرب النَّبي ﷺ للمكلف مثلا بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن. فالصحة والفراغ رأس المال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان، ومجاهدة النفس، وعدو الدين؛ ليربح خيري الدنيا والآخرة، وقريب منه قول الله تعالى: ﴿ **هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ [الصف: ٩] . وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح.

وقوله في الحديث: "**مغبون فيهما كثير من الناس**": كقوله تعالى: ﴿ **وقليلٌ من عبادي الشكور** ﴾ فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية.

وقال القاضي وأبو بكر بن العربي: اختلف في أول نعمة الله على العبد، فقيل الإيمان. وقيل الحياة. وقيل الصحة. والأول أولى؛ فإنه نعمة مطلقة.

وأما الحياة والصحة: فإنهما نعمة دنيوية، ولا تكون نعمة حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمان، وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس، أي يذهب ربحهم أو ينقص، فمن استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء، الخالدة إلى الراحة؛ فترك المحافظة على الحدود، والمواظبة على الطاعة: فقد غبن. وكذلك إذا كان فارغًا؛ فإن المشغول قد يكون له معذرة، بخلاف الفارغ، فإنه يرتفع عنه المعذرة، وتقوم عليه الحجة". اهـ.

ولذلك فقد أرشد النَّبي ﷺ إلى اغتنام الوقت والفراغ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النَّبي ﷺ قال: "**اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**" (١).

قال العلامة المناوي ـ رحمه الله تعالى ـ في "فيض القدير":

"**اغتنم خمسا قبل خمس**": أي افعل خمسة أشياء، قبل حصول خمسة أشياء.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «الشعب» وانظر: صحيح الجامع الصغير.

"**حياتك قبل موتك**": يعني اغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك؛ فإن من مات انقطع عمله، وفاته أمله، وحق ندمه، وتوالى همه، فاقترض منك لك.

"**وصحتك قبل سقمك**": أي اغتنم العمل حال الصحة؛ فقد يمنع مانع كمرض، فتقدم المعاد بغير زاد.

"**وفراغك قبل شغلك**": أي اغتنم فراغك في هذه الدار، قبل شغلك بأهوال القيامة، التي أول منازلها القبر، فاغتنم فرصة الإمكان؛ لعلك تسلم من العذاب والهوان.

"**وشبابك قبل هرمك**": أي اغتنم الطاعة حال قدرتك، قبل هجوم عجز الكبر عليك؛ فتندم على ما فرطت في جنب الله.

"**وغناك قبل فقرك**": أي اغتنم التصدق بفضول مالك، قبل عروض جائحة تفقرك، فتصير فقيراً في الدنيا والآخرة.

فهذه الخمسة: لا يُعرف قدرها إلا بعد زوالها؛ ولهذا جاء في خبر "**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**".

تنبيه: قال حجة الإسلام: الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى، والبدن مركب، ومن ذهل عن تدبير المنزل والمركب؛ لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا؛ لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله، الذي هو السلوك". اهـ.

واعلم: أن الأوقات ثلاثة لا رابع لها: وقت مضى.. ووقت آت.. ووقت حضر.

وعليه: فالاشتغال بالأوقات يكون:

- **لِمَا قد مضى**: بالاستغفار.
- **ولِمَا هو آت**: بالرجاء.
- **ولِمَا هو حاضر**: بالإحسان.

- **ذلك أن مـا مضـى**: لا يخلو من التقصير، أو التفريط.
- **وأن مـا هـو آت**: لا ينفك عن طلب محبوب ونافع، ودرء مكروه وفاسد.
- **وأن ما هـو حاضـر**: لا ينفك من القيام بعمل ما من أعمال الآخرة، أو أعمال الدنيا.

[٦] حُسْنُ الخُلُقِ:

ومما ينبغي أن يلتزمه المسلم والمسلمة، في اليوم والليلة، من أمور التزكية: حُسْن الخلق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**"(١).

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: "**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ: أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا**". متفق عليه.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "**إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**"(٢).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النَّبي ﷺ قال: "**أكمل المؤمنين إيمانًا: أحسنهم خُلُقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، و لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**" (٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**" (٤).

وعن أنس رضي الله عنه، أن النَّبي ﷺ قال: "**إن أكمل المؤمنين إيمانًا: أحسنهم خُلُقًا، وإن حُسْنَ الخُلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة**" (٥).

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد، وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد، وأبو داود، وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

(٣) **حديث صحيح**: أخرجه الحاكم في الطبراني في «الأوسط» وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

(٤) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع الصغير».

(٥) **حديث صحيح**: أخرجه البزار، وانظر: «صحيح الجامع الصغير».

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ فَقَالَ: "**الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**". مسلم.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في "شرح صحيح مسلم":

"قوله: (**لم يكن فاحشا ولا متفحشا**). قال القاضي: أصل الفُحش: الزيادة والخروج عن الحد.

قال الطبري: الفاحش: البذيء.

قال ابن عرفة: الفواحش عند العرب: القبائح.

قال الهروي: الفاحش: ذو الفحش. والمتفحش: الذي يتكلف الفحش ويتعمده؛ لفساد حاله.

قال: وقد يكون المتفحش: الذي يأتي الفاحشة.

قوله ﷺ: (**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا**): فيه الحث على حسن الخلق، وبيان فضيلة صاحبه. وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه.

قال الحسن البصري: حقيقة حسن الخلق: بذل المعروف، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والْبِشْرِ، والتودد لهم، والإشفاق عليهم، واحتمالهم، والحلم عنهم، والصبر عليهم في المكاره، وترك الكبر والاستطالة عليهم، ومجانبة الغلظ والغضب، والمؤاخذة.

قال: وحكى الطبري خلافا للسلف في حسن الخلق: هل هو غريزة أم مكتسب؟ قال القاضي: والصحيح: أن منه ما هو غريزة، ومنه ما يُكتسب بالتخلق والاقتداء بغيره. والله أعلم". اهـ.

وقال أيضًا: قوله ﷺ: (**البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك،**

وكرهت أن يطلع عليه الناس). قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة، وبمعنى اللطف، والمبرة، وحسن الصحبة والعشرة. وبمعنى الطاعة. وهذه الأمور هي مجامع الخلق.

ومعنى (حاك في وصدرك): أي تحرك فيه، وتردد، وثم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك، وخوف كونه ذنباً". اهـ.

قال ابن قدامة المقدسي ـ رحمه الله تعالى ـ في "مختصر منهاج القاصدين":

"كثيراً ما يُستعمل حُسن الخلق مع الخَلْق، فيقال: فلانٌ حَسَنٌ الخَلْق والخُلُق. أي حسن الظاهر والباطن. فالمراد بالخَلْق: الصورة الظاهرة. والمراد بالخُلُق: الصورة الباطنة؛ وذلك أن الإنسان مركب من: جسد ونفس.

فالجسد: مُدرك بالبصر. والنفس: مُدركة بالبصيرة. ولكل واحد منها هيئة وصورة، إما جميلة، أو قبيحة. والنفس المُدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المُدرك بالبصر؛ ولذلك عَظَّمَ الله سبحانه وتعالى أمره، فقال: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ [ص : ٧١ ـ ٧٢].

فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه سبحانه وتعالى.

فالخُلُق: عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة؛ سُميت: خُلُقًا حسنًا. وإن كانت قبيحة؛ سُميت خُلُقًا سيئًا". اهـ.

وقال الإمام الماوردي ـ رحمه الله تعالى ـ في "أدب الدنيا والدين":

"قال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوءِ الدواء ؟، قالوا: بلى. قال: الخُلُقِ الدنيّ، واللسان البذيّ.

قال بعض الحكماء: من ساء خُلُقه؛ ضاق رزقه. وعلة هذا القول ظاهرة.

وقال بعض البلغاء: الحَسَنُ الخُلُق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة..

والسيء الخلق الناس منه في بلاء، وهو من نفسه في عَنَاء.

وقال بعض الحكماء: عاشر أهلك بأحسن أخلاقك؛ فإن الثواء [١] فيهم قليل.

وقال بعض الشعراء:

إذا لم تتسعْ أخلاقُ قومٍ ... تضيقُ بهم فَسيحاتُ البلادِ

إذا ما المرءُ لم يُخلق لبيبًا ... فليس اللُّبُّ عن قِدَمِ الولادِ

فإذا حَسُنَت أخلاق الإنسان: كثر مصافوه، وقلَّ معادوه؛ فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب...

وقال بعض الحكماء: من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المسْعِدين، وقلة الأعداء المجحفين؛ ولذلك قال النَّبي ﷺ: "**أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاق، الموطئون أكنافا، الذين يألفون، ويؤلفون**".

وحسن الخلق: أن يكون سهلَ العريكة [٢]، لينَ الجانب، طَلِقَ الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة؛ وقد بين النَّبي ﷺ هذه الأوصاف، فقال: "**أهل الجنة: كُل هَينٍ لَينٍ، سهل طلق**". [٣]". اهـ.

[٧] الكسب الطيب:

ومن تزكية النفس: الالتزام بالكسب الطيب، والسعي والعمل.

وقد حث الشرع على العمل.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾[النبأ: ١١].

---

(١) ثوى بالمكان، يثوي ثَوَاءًا، وثُوِيًّا، أي: أقام به. « مختار الصحاح ».

(٢) أي سلس الطبيعة.

(٣) لفظ الحديث الصحيح، هو ما أخرجه الترمذي في « جامعه » والطبراني في الكبير، عن ابن مسعود، أن النَّبي ﷺ قال: « **ألا أُخبركم بمن يَحْرُم على النار**»، أو «**بمن تحرُمُ عليه النَّار: على كُلِّ قريب هين سهل**».

وقال تعالى: ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠) ﴾ .

[الحجر: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ .

[الإسراء: ١٢].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿ وجعلنا النهار معاشا ﴾: أي جعلناه مشرقًا نيرًا مضيئًا؛ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك" . اهـ.

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره:

"وقوله: ﴿ وجعلنا النهار معاشا ﴾ : يقول وجعلنا النهار لكم ضياء؛ لتنتشروا فيه لمعاشكم، وتتصرفوا فيه لمصالح دنياكم، وابتغاء فضل الله فيه، وجعل جل ثناؤه النهار إذ كان سببًا لتصرف عباده لطلب المعاش فيه معاشًا" . اهـ.

وقال العلامة الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره:

قوله: ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾ : أي جعلنا لكم فيها مكانًا، وهيأنا لكم فيها أسباب المعايش ، والمعايش جمع معيشة: أي ما يتعايش به من المطعوم والمشروب، وما تكون به الحياة، يقال عاش يعيش عيشًا ومعاشًا ومعيشًا. قال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش" . اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره:

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ : يمتن تعالى

على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار؛ ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش، والصنائع، والأعمال، والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مُضي الآجال المضروبة للديون، والعبادات، والمعاملات، والإجارات، وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك" . اهـ.

وقد أمر الله تعالى عباده بالتكسب، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[الملك: ١٥].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره:

"ذكر نعمته على خلقه، في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب؛ بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾: أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها؛ في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يُجدي عليكم شيئًا إلا أن يُيسِّره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾: فالسعي في السبب لا ينافي التوكل" . اهـ.

قال السمرقندي ـ رحمه الله تعالى ـ في "تنبيه الغافلين":

"وقال شقيق بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾[الشورى: ٢٧]. إن الله عز وجل لو رزق العباد من غير كسب؛ لتفرغوا فتفاسدوا، ولكن شغلهم بالكسب؛ حتى لا يتفرغوا للفساد" . اهـ.

وعَنْ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**" . البخاري.

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ: حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : "**أَنَّ دَاوُدَ**

النَّبيَّ عليه السلام ، كَانَ لا يَأْكُلُ إلا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" . البخاري.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في "فتح الباري":

"ووقع في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند واه "**كان داود زراداً، وكان آدم حراثًا، وكان نوح نجاراً، وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيا**" .

وفي الحديث: فضل العمل باليد، وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه، على ما يباشره بغيره.

والحكمة في تخصيص داود بالذكر: أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده، لم يكن من الحاجة؛ لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النَّبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها، على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد، وهذا بعد تقرير أن شرع من قبلنا شرع لنا، ولا سيما إذا ورد في شرعنا مدحه وتحسينه، مع عموم قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

[الأنعام: ٩٠].

وفي الحديث: أن التكسب لا يقدح في التوكل، وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في نفس سامعه" . اهـ.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ**" (١) .

قال العلامة السندي ـ رحمه الله تعالى ـ في "شرح سنن النسائي":

"**قوله**: (إن أطيب ما أكل الرجل.. إلخ) أطيب الحلال، والتفضيل فيه بناء على بُعده من الشبهات ومظانها.

والكسب: السعي، وتحصيل الرزق، وغيره، والمراد المكسوب الحاصل بالطلب والجد في تحصيله بالوجه المشروع" . اهـ.

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وانظره «صحيح الجامع».

وعَنْ أَبي عُبَيْد مَوْلَى عَبْدالرَّحْمَن بْن عَوْف، أَنَّهُ سَمعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "**لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِه، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ**". متفق عليه.

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: "**لأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِه، فَيَتَصَدَّقَ به، وَيَسْتَغْنِيَ به مِنْ النَّاس، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**". متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في "فتح الباري":

"فيه الحض على التعفف عن المسألة، والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق، وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قُبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها؛ وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال، ومن ذل الرد إذا لم يُعط، ولما يدخل على المسؤول من الضيق في ماله إن أعطى كل سائل.

وأما قوله "**خَيْرٌ لَهُ**": فليست بمعنى أفعل التفضيل؛ إذ لا خير في السؤال مع القدرة على الاكتساب، والأصح عند الشافعية أن سؤال من هذا حاله حرام، ويحتمل أن يكون المراد بالخير فيه: بحسب اعتقاد السائل، وتسميته الذي يُعطاه خيرًا، وهو في الحقيقة شر. والله أعلم". اهـ.

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في "شرح صحيح مسلم":

"فيه: الحث على الصدقة، والأكل من عمل يده، والاكتساب بالمباحات، كالحطب والحشيش النابتين في موات". اهـ.

فالعمل، والسعي على الكسب، والجد في تحصيل ما يتقوت به، إنما هو من الشرع، فلابد من الالتزام اليومي به؛ وذلك ليحصل به الكفاية.

قال السمرقندي ـ رحمه الله تعالى ـ في "تنبيه الغافلين":

"قال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن ينزل بلدًا ليس فيها خمسة: سلطان

قاهر، وقاض عادل، وسوق قائم، ونهر جار، وطبيب حاذق.

وقيل لبعض الحكماء: ما خير المكاسب؟ .

■**قال: أما خير مكاسب الدنيا**: فطلب الحلال لزوال الحاجة، والأخذ منه لعدة العبادة، وتقديم فضل زاد يوم القيامة.

■**وأما خير مكاسب الآخرة**: فعلم معمول به نَشَرْتَه، وعمل صالح قدمته، وسُنَّة حسنة أحييتها.

قيل: وما شر المكاسب؟ .

■**قال: أما شر مكاسب الدنيا**: فحرام جمعته، وفي المعصية أنفقته، ولمن لا يطيع ربه خلفته.

■**أما شر مكاسب الآخرة**: فحق أنكرته حسدًا، ومعصية قدمتها إصرارًا، وسُنَّة سيئة أحييتها عدوانًا. أي ظلمًا" . اهـ.

وأيضًا فإن العمل والسعي على الكسب، يصون العبد عن التعرض للسؤال؛ فإن في السؤال ذل وإهانة.

والسؤال ليس لكل أحد:

عن عَنْ قَبيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً؛ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَسْأَلُهُ فيهَا . فَقَالَ : "**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**" . قَالَ : ثُمَّ قَالَ: "**يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إِلا لأَحَدِ ثَلاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً؛ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ؛ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ**" . أَوْ قَالَ: "**سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ؛ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ**" . أَوْ قَالَ: "**سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**" . مسلم.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في "شرح صحيح مسلم":

قوله: (**تحملت حمالة**): هي بفتح الحاء، وهي المال الذي يتحمله الإنسان، أي يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين، كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك. وإنما تحل له المسألة، ويُعطى من الزكاة، بشرط أن يستدين لغير معصية.

قوله ﷺ: (**حتى تصيب قواما من عيش**) أو قال: (**سدادا من عيش**).

(**القوام والسداد**) بكسر القاف والسين، وهما بمعنى واحد، وهو ما يغني من الشيء، وما تسد به الحاجة، وكل شيء سددت به شيئًا فهو (سداد) بالكسر.

قوله ﷺ: (**حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة**): هكذا هو في جميع النسخ (يقوم ثلاثة): وهو صحيح، أي يقومون بهذا الأمر فيقولون: لقد أصابته فاقة

(والحجا): مقصور، وهو العقل. وإنما قال ﷺ: (**من قومه**) لأنهم من أهل الخبرة بباطنه، والمال مما يخفى في العادة، فلا يعلمه إلا من كان خبيراً بصاحبه. وإنما شرط الحجا؛ تنبيهًا على أنه يُشترط في الشاهد التَّيقُّظُ، فلا تُقبل من مغفل، وأما اشتراط الثلاثة، فقال بعض أصحابنا: هو شرط في بينة الإعسار، فلا يقبل إلا من ثلاثة؛ لظاهر هذا الحديث،وقال الجمهور: يقبل من عدلين كسائر الشهادات غير الزنا. وحملوا الحديث على الاستحباب، وهذا محمول على من عرف له مال، فلا يُقبل قوله في تلفه والإعسار إلا ببيِّنة، وأما من لم يعرف له مال، فالقول قوله في عدم المال.

قوله ﷺ: (**فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحتا**) وفيه إضمار أي: أعتقده سحتا. أو يؤكل سحتا". اهـ.

والعمل،والسعي على الكسب،واكتساب الرزق أنواع مختلفة،ووجوه متباينة فمنها:

الزراعة.. ونتاج الحيوان.. والصناعة.. والتجارة.. والبيع.. وصناعة الفكر.

والعمل والسعي على الكسب، له آداب وأخلاق:

قال السمرقندي ـ رحمه الله تعالى ـ في "تنبيه الغافلين":

"**قال بعض الحكماء: إذا لم يكن في التاجر ثلاث خصال؛ افتقر في الدارين جميعًا:**

أولها: لسان تقي من ثلاثة: من الكذب، واللغو، والحلف.

والثاني: قلب صافٍ من ثلاث: من الغش، والخيانة، والحسد.

والثالث: نفس محافظة لثلاث: الجمعة والجماعات، وطلب العلم في بعض الساعات، وإيثار مرضاة الله تعالى على غيره". اهـ.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: "من أراد أن يكون كسبه طيبًا؛ فعليه أن يحفظ خمسة أشياء:

أولها: أن لا يؤخر شيئًا من فرائض الله تعالى لأجل الكسب، ولا يدخل النقص فيها.

والثاني: لا يؤذي أحدًا من خلق الله تعالى لأجل الكسب.

والثالث: أن يقصد بكسبه استعفافًا لنفسه ولعياله، ولا يقصد به الجمع والكثرة.

والرابع: أن لا يُجهد نفسه في الكسب جدًّا.

والخامس: أن لا يرى رزقه من الكسب، ويرى الرزق من الله تعالى، والكسب سببًا".

وختامًا لباب التزام التزكية:

إن أعمال التزكية متنوعة ومنقسمة، بين السلوك، والأخلاق، والآداب، وهي ملازمة للعبد في كل يوم وليلة، وهي من الدين؛ وقد قال النَّبي ﷺ: "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**".

قال العلامة المناوي ـ رحمه الله تعالى ـ في "فيض القدير":

"**إِنَّمَا بُعِثْتُ**": أي أُرسِلتُ.

"**لأُتَمِّمَ**" : أي لأجل أن أكمل.

"**صَالِحَ**" : وفي رواية بدله: "مكارم".

"**الأَخْلاقِ**" : بعد ما كانت ناقصة، وأجمعها بعد التفرقة. قال الحكيم: أنبأنا به، أن الرسل قد مضت ولم تتم هذه الأخلاق، فبُعث بإتمام ما بقي عليهم. وقال بعضهم: أشار إلى أن الأنبياء عليهم السلام قبله بُعثوا بمكارم الأخلاق، وبقيت بقية، فبُعث المصطفى ﷺ بما كان معهم وبتمامها.

وقال الحرالي: صالح الأخلاق: هي صلاح الدنيا والدين والمعاد، التي جمعها في قوله: "**اللّهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي**". اهـ.

وعليه: فليلزم العبدُ السلوكَ، وليأخذ بمكارم الأخلاق ومعاليها، وليتحلّ بمحاسن الآداب.